الجـــــــــدار

حـــامـــد فـــضل الله ❖

تتردّد م منذ أربع سنوات على عيادتي بانتظام من أجل الفحص الدوريّ وتجديد «روشتة» أقراص منع الحمل. امرأةٌ في مقتبل العمر، رشيقةُ القوام، شفتاها دقيقتان، وعيناها واسعتان جميلتان، تُرسل شعَرها الطويل، أنيقةَ الملبس من دون تكلّف.

حكت لي في إحدى الزيارات أنها عاشت تجربةَ حبٍّ عاصفةً مع زميل لها أثناء الدراسة:

«كان شاباً طويلَ القامة، وسيمًا، طَلِقَ اللسانْ مع ميلٍ إلى الدعابة المحبَّبة. وكنّا، نحن الفتيات، نتنافس في التودّد إليه، إلى أن فزتُ بقلبه. كنا لا نفترق، وإنْ أثناء العطلة الدراسية. ثم قطع علاقتَه بي فجأةً ومن دون أسباب. مررتُ بفترةٍ عصيبةٍ كادت تعصف بحياتي، إلى أن تعرّفتُ إلى زوجي الحاليّ، الذي يَكْبرني بسنواتٍ قليلة، أثناء أحد المؤتمرات الصحفيّة، فأعاد لي توازني. زوجي رجلٌ قويُّ الشخصية والبنية، ذو ثقافةٍ واسعةٍ ورفيعة، يعمل مديرًا لإحدى الشركات الكبيرة.»

وتابعتْ م قائلةً: «عندما يحتوينا المخْدعُ ويأخذني بين ذراعيْه ويضمّني شوقًا، تداهمني، في لحظة الصعود، صورةُ صديقي السابق وتنفُّسُه، فتتوتّر أعصابي وأكاد أن أختنق، وأشعر وكأنني أَغْدر بزوجي، فيتملّكني الحزنُ وأتألّم في صمت، غيرَ قادرةٍ على مفاتحته خشيةَ أن أجرحَه؛ فهو يحبّني حبّاً صادقًا.»

علمتُ أيضًا أنها تعمل الآن محرِّرةً في إحدى الصحف البرلينيّة الواسعة الانتشار. تُحرِّر، مع زميلٍ لها، الصفحةَ الثالثةَ المختصّة بالسياسة الخارجيّة، ولاسيّما العالم الثالث. ومنذ ذلك الحين وأنا أتابع كتاباتها التي تتّصف بالموضوعيّة وبالتحليل الدقيق الثاقب والمنصف، خلافًا لغالبيّة الإعلام الألمانيّ المتحيِّز ضدّ قضايا العالم الثالث ومشاكله.

كانت تحرص على أن تكون آخرَ مريضةٍ أستقبلها: فهي تُسْرف في الحديث. وهي سريعةُ الكلام، وبالرغم من ذلك تأتي مخارجُ كلماتها واضحةً تمتزج بصوتها الرخيم الذي لا يُمَلُّ من الإنصات إليه.

كانت تناقشني وتسألني عن وطني، وأندهش أحيانًا لاطّلاعها الواسع على التطوّرات التي تجري فيه، ليس فحسب بسبب أزمة دارفور التي يشوبها كثيرٌ من الافتعال عبر الإعلام الغربيّ وتختفي خلفها الأغراضُ.

لم تسألني أبدًا لماذا تركتُ وطني؟ وهو السؤال الذي يخشاه كلُّ مغترب. وتندهش قائلةً: «كلما خَرَجَ وطنُكم من أزمة سقط في أخرى! هذا البلد واسعٌ بشعبه الطيّب، ويَمْلك إمكانياتٍ كبيرةً يمكن أن تَدْفع به إلى عداد الدول النامية الناجحة.» كنتُ أجادلها أحيانًا بلاعقلانيّة، متعاميًا عن فسادنا وقصورنا، مدفوعًا بالغيرة الوطنيّة والهويّة القاتلة وخداعِ النفس أمام الآخر.

قالت لي، وهي تبدو حزينةً، إنّ حلْمها بالحَمْل لم يتحقّقْ منذ أن تركت الأقراصَ قبل عامين، فأذكّرها بأنّ كلّ الفحوصات التي أُجريْت لها ولزوجها لم تُثْبتْ أنّ هناك أيَّ سببٍ مانعٍ للحمل، وأنّ الأمر يتطلّب قليلاً من الصبر. فتقول «إلى متى والعمرُ يتقدّم بي، وكلُّ صديقاتي ومعارف زوجي أنجبن، وأسرةُ زوجي تَضْغط في انتظار الوليد؟»

وكنتُ أخشى ألاّ تعود مرةً أخرى. لكنّي أجدها فجأةً أمامي، فأشعر بالزهو لأنها لا تزال مقتنعةً بصواب تشخيصي.

❖ ❖ ❖

❖ - طبيب وكاتب سودانيّ مقيم في ألمانيا.

جاءت م مرةً شاحبةَ الوجه. جلستْ قبالتي صامتةً على غير عادتها. ولما شعرتْ بتوجّسي، قالت: «لا داعي للقلق، ليس بي شيء، وإنما مرهقة فقط من تراكم العمل.»

فحصتُها كالمعتاد ونصحتُها بأن تأخذ إجازةً طويلةً بصحبة زوجها. قالت: «كيف أستطيع أن أُقنع زوجي منطقيّاً بأن يتخلّى عن عادة العُطَل القصيرة؟ قلتُ لها إنّ هناك طرقًا كثيرةً لا تحتاج إلى المنطق تستخدمها المرأةُ لإقناع الرجل. ابتسمتْ لتُشْعرني بأنها فهمتْ ما أرمي إليه.

❖ ❖ ❖

انفرج البابُ واندفعتْ م بحيويّة فائقة إلى غرفتي، متخطّيةً المرّضةَ، باسطةً ذراعيْها العاريتيْن أمامي. «ألا ترى أنّ سمرتي تفوق سمرتك؟». قلتُ لها: «ذلك وقتيٌّ وهذا دائمٌ،» وأشرتُ إلى بشرتي. ضحكتْ وأردفت: «يا لها من عطلة، ويا له من صيف! كان الهواء منعشًا نقيّاً، لم نشاهدْ قطرةَ مطرٍ واحدةً. الشمس لا تغيب حتى الساعة العاشرة مساءً، تَعْقبها النجومُ التي تزيّن السماءَ الزرقاءَ الصافية وينعكس بريقُ ضوئها على أمواج البحر بصورةٍ خلاّبة. لا ننظر إلى الساعة، ونستيقظ كما يحلو لنا، ونتمطّى في خدر عذب.» وواصلتْ:

«على مائدة الإفطار ونحن نتهيّأ للرحيل، أحاط خصري بذراعيه وجذبني إليه وقال إنه لم يشعرْ في ليلة البارحة، ونحن في قمّة الذروة، بمثل رعشة جسدي وحرارة أنفاسي من قبلُ. لقد كانت حقّاً ليلةً رائعة. تعلّقتُ بعنقه، ودفنتُ رأسي في صدره لأحبس دموعي، كأنّنا مراهقان.»

نظرتُ إليها. غضّت البصرَ، وتورّدتْ وجنتاها، وصمتتْ خجلى كأنها أسرفتْ في البوح. وعندما ابتسمتُ لها اطمأنّتْ وواصلتْ متمتمةً: «حضرتُ مبكّرًا على خلاف المعتاد لأنني أشعرُ منذ أيام بثقلٍ في ثديي، مع شعورٍ بالغثيان والدوار.» قمتُ بفحصها وقلتُ لها إنَّ هناك بوادرَ حملٍ مبكّر. لم تردّ على كلماتي. وعندما وضعت المرّضةُ نتيجةَ الفحص المعلّي أمامها، بدت الكلماتُ وكأنّها انحبستْ في حلقها. أزالت بيدها قطراتِ الدموع قبل أن تنحدر على خدّيْها، وتمتمتْ: «لا أصدّق....لا أصدّق... كأنّني في حلم. كيف أزفّ الخبرَ إلى زوجي؟»

نهضتْ، وقبل أن تخطو إلى الأمام، هتفتْ: «يا إلهي، لقد نسيتُ من فرط انزعاجي أن أخبركَ بأنني، عندما كنتُ أتجوّل على الشاطئ وأستمتعُ بالرمال الناعمة الدافئة تحت قدميَّ، شاهدتُ صديقي السابق يفترش الأرضَ وقد ترهّلَ جسدُه وتكوّر بطنُه وتساقط شعرُه. تطلّعتُ إليه وبادلني نظرةً خاطفةً، وانطلقتُ قبل أن يصيبني الدوار.»

تقدّمتُها باسطًا يديَّ لها مودّعًا. ضغطتْ عليها بدفءٍ وامتنانٍ قبل أن تتوارى خلف الباب.

برلين